تحول الاصطلاحات الدلالية في اللغة

أ.د. عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

1 . لا مصطلح بدون اصطلاح

كنا ألمحنا في مناسبة أخرى إلى ضرورة رفع كل لُبْسة أو إشكال بين مادتي الاصطلاح من جهة والمصطلح من جهة أخرى، لأنهما شيئان مختلفان ينبغي ألا نَلْبِسَ بينهما أو نتهاون في القيمة التي نجنيها في التمييز بينهما، لأنه لا يطفو مصطلح صناعي بالتعبير القديم أو علميٌّ بالتعبير الحديث إلا وتقَدَّم بُرُوزَه في هذه اللغة أو تلك اصطلاحٌ دَلالي نووي أو نواتي.

وإذا ما وجد مصطلح علمي في لغة من اللغات تجهل نواة اصطلاحه التي اشتق منها أو قيس عليها دلاليًا بكيفية من الكيفيات، فإن الأمر لا يعني إلا شيئًا واحدًا، وهو أن ذلك المصطلح العلمي المجهولة أو المنعدمةَ نواتُه في اللغة التي تبنته مصطلحٌ دخيل في هذه اللغة.

اللغة ورشة صناعية :

وكل اللغات الإنسانية متضاهية في فبركة وصناعة اصطلاحاتها، وليست اللغة بشكل من أشكالها إلا ورشة صناعية أصواتها ووحداتها الدالة، ولواحقها وسوابقها، ومشتقاتها، وحتى مجازاتها وتشبيهاتها التي تسحر عقولنا:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي

أو حتى كقول أبو نواس

تبكي فتُلْقي الدُّرَّ من نَرْجسٍ وتَلْطُم الورَدَ بِعُنَّــابِ

هي أدواتها وآلامها لصناعة ما يناسب تنمية وتطور مجتمعها الناطق بها، لأن الاعتراف باستعمالها في محيطه الداخلي والخارجي أول شرط من شروط أية لغة إذا أراد هذا المجتمع أن تتجاوب لغته معه، وأن يحصل منها على قابلية للانسجام مع حاجاته ومقتضيات عصره.

تجاهل رينان على الساميات وخاصة العربية:

غير أن بعض الباحثين الأجانب من ذوي النيات السيئة يأبى إلا أن يعود بنا إلى تفسير اللغة تفسيرًا عرقيًا مغرضًا، بمعنى أن هناك لغة أضعف من لغة، أو هذه أجدر بالرقي والسمو والكمال وتلك حسية منحطة وجودها خطأ في الكون أو عالة على سائر اللغات الجديرة بالبقاء ومواكبة العصور والأجيال.

من هذا ما ادعاه المستشرق الفرنسي أرنست رينان فيما كتب عن اللغات السامية ومنها العربية، واصفًا إياها وصفًا لا يليق حتى بلغة الإسكيمو أو قبائل البوشمان أو البانتو، ومن هذه الأوصاف المشينة السذاجةُ،

والبساطة، أو ما أسماه « الوحدانية »، قاصدًا بها أن الساميين موحدون بالطبيعة، والتوحيد يؤدي إلى البساطة والسذاجة، ومقارنة بهذا يكون تخريجه لكل « الاستنباطات التي ولدها بنبوغه وطول باعه في الفيلولوجيا » متخذًا العرب مثالاً حيًا، باعتبارهم أصفى عناصر الشعوب السامية، كما يزعم، على فكرهم الساذج، وعقليتهم السطحية، لأن العرب يعدمون الخيال، والفنون التشكيلية، والآداب الملحمية، والفلسفية، والعلم، والتنظيمات المدنية والعسكرية، حتى شعرهم رتيب، ويتصف بالذاتية، وكأن معنى قول امرئ القيس :

وما المرء مادامت حشاشة نفسه بمُدْرِكِ أطرافِ الخطوب ولاآلِ

أو قول طرفة الشاب :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وغيرهما من آلاف المعاني الشعرية القديمة يتميزان بالرتابة والذاتية.

ويردف هذا المستشرق قائلا: إنك لترى « العربي أمام الروايات العجيبة والمشاهد المذهلة خلوًا من كل تفكير مكتفيًا أن يقول لك : إن الله على كل شيء قدير، كما أنه في حالات الشك بين المذاهب المتناقضة يفر من حيرته بقوله: والله اعلم،... ومن غير الوارد أن تحتج للعرب بما لديهم من فلسفة، إنما هي تلفيقات منتزعة من الإغريق كتبت بالعربية، وليس لها أصل ولا جذر في شبه جزيرة العرب »[1]. باعتبار العرب غير قادرين على تعقيد الأشياء وتركيبها.

ولو وقف اتهام رينان في تعصبه الأعمى على العقلية السامية بعامة والعقلية العربية بخاصة لقلنا إن بعض مواصفاته التي سردها مجانًا لا تخلو كلها في نظرنا من العادات المنهجية التي تعود العرب القدماء أن يتعاملوا بها

مع الطبيعة والأشياء، ولكنه تطاول على اللغة العربية نفسها مع أخواتها الساميات مدعيًا أن اللغات السامية تتميز بالواقعية والحس، في حين أن اللغات الآرية تنزع إلى المثالية، لأنها رائعة في مرونتها، ومختلفة في وجوه إعرابها، ودقيقة في أدوات ربطها، وكلماتها المركبة، وخاصة في سرها العجيب المسمى عند اللغويين بـ inversion (القلب) أي تقديم الكلمة أو تأخيرها خلافًا للقاعدة،... أما اللغات السامية فلو استعرضنا سلسلة جذورها لوجدنا صعوبة في أن نجد فيها ما هو من الابتداء بمعنى مادي، مؤكدًا أن اللغات الآرية لغات تركيبية خلافًا للغات السامية المعروفة بأنها لغات تحليلية، واللغة العربية في نظره، بالرغم من ثرائها فهي من حيث الضبط والدقة لا تقاس باللغات الهندية الأوروبية،... إلى غير ذلك من الشطحات التي اشتهر بها رينان في تعصبه الآري عرقًا ولغة على العرب ولغتهم.

تفنيد مزاعم رينان:

وإذا كان المقام هنا لا يسمح لنا بتفنيد فتاوى رينان الزائفة بالنسبة لما وصف به العربية بشكل خاص والساميات بشكل عام، فإني لا اخفي تساؤلاً خامرني منذ اطلاعي البعيد على هذه الأفكار الرينانية الساذجة : أين كان عقل هذا المستشرق الفاضل عن نقائص ومتاعب لغته الفرنسية نطقًا، وكتابة، وتركيبًا وليكسيكيًا و فونيتيكيًا،... وهو يهاجم هذه اللغة الكريمة الشريفة التي كرمها وشرفها الله بإنزال آخر كتاب سماوي؟.

لماذا تجاهل رينان بان معرفة لغة من اللغات الشرقية صار أمراً محتمًا على كل أوروبي مثقف، وأن الأفكار الشرقية ظلت سائدة منذ ظهور المسيحية والإسلام ثم مذهب التجديد الأدبيHumanisme إلى غاية القرن السابع عشر أم يريد أن يسمنا بما وسمهم به أرسطو « إن غير اليونان من الأوروبيين غير مستعدين للحضارة» ؟[2] وكأنه يريد أن ينسخ هذه الجملة الأرسطية الشهيرة، ليقول لنا ببساطة: « إن غير الآريين ممن حولهم من الشعوب غير مستعدين للحضارة».

ألا يفتح قاموسه الفرنسي ليقف على ما دخله من مائات الكلمات العربية في الأطعمة والأشربة والأكسية والألوان والاصطلاحات المتصلة بقص الشعر ومشطه وتسريحه وصناعة الملابس؟ ألا يعلم مثلاً بأن مصطلحات الري في اللغة الإسبانية جارة لغته هي تقريبًا كلها باللغة العربية« ماعدا الشاذ النادر منها، ابتداء من كلمة الناعورة

Noria ، وهي لفظة انتقلت من الإسبانية إلى الفرنسية، وكذلك في المفردات الخاصة بصيد البحر، وبخاصة حين تتم ممارسة الصيد بالشباك أو المضربة كما تسمى في العربية، وهي كلمة دخلت الإسبانية في صورة Almadrabas وانتقلت إلى اللغة الفرنسية في صورة Madragues وما تحتويه معاجم النبات من المفردات العربية لا يقل نسبة عن ذلك،... فانضم إلى المعجم الفرنسي مثل البرقوق Abricot،... وتدين اللغة الفرنسية للغة العربية، عن طريق الإسبانية، بعدد من أسماء الألوان»[3].

وهل علم أم جهل رينان بأن أغلب المفردات العربية الثقافية والاجتماعية والحضارية والفلسفية والعلمية،... التي أخذت طريقها إلى اللغة الفرنسية التي كانت حتى ذلك الوقت في طور النشأة والنمو عبر اللغة الإسبانية ؟[4].

على أي حال، لسنا هنا في مجال الرد والتحليل المباشرين لدحض مزاعم هذا المستشرق الفارغة من كل رؤية صادقة، ولكن هذا لا يمنعنا من الإشارة العابرة إلى أن اللغات كلها لها خاصية الاشتراك والفضل فيما تأخذه وتعطيه، وأن الحضارات الإنسانية وليدة أعمال وإنتاجات عقلية وفكرية متفاعلة ومتلاحقة، فالأرقام العربية التي ما هي في جوهرها إلا معان كاملة ومفيدة لشبكات لا نهائية من المداليل الكامنة في معدوداتها، قدمت فضلاً علميًا لا يرد للإنسانية.

اللغات كلها سواء

وبكلمة واحدة، فإن اللغويين والدارسين المحدثين من كل الاتجاهات لم يعودوا ينظرون تلك النظرة الرينانية الميتافيزيقية للغات على أنها تنقسم إلى لغات بدائية أو حسية أو شيء من هذا ولغات أخرى حضارية شفافة مرهفة.

صحيح إن « لغات الشعوب التي تحيى في مجتمعات بدائية لا تعرف سوى القليل من مصطلحات الثقافة الحضارية، بيد أن هذا لا يكشف لنا إلا عن شيء واحد، وهو أن الثقافات البدائية ثقافة فقيرة ضحلة، ولكن نجد من ناحية أخرى أن هذه اللغة تفي بكل الجوانب الهامة في الحياة، ونجد هذا واضحًا بوجه خاص بالنسبة للاصطلاحات المتعلقة بالقرابة والنسب »[5] في لغات قبائل أستراليا، ويَصْدُقُ الشيء نفسه على المسميات الخاصة بمراحل العمر، بحيث تفوق عدد المصطلحات الخاصة بمراحل العمر في لغات أوروبية[6].

وإذا كانت الظروف المعيشية المختلفة وسبل التطور المتباينة لدى الناطقين بلغة تؤدي حتمًا إلى بروز وتوليد أبنية متباينة في المفردات والتراكيب فإنه من « لغو الكلام أن نتحدث عن لغة أفضل وأخرى أسوأ، تمامًا مثلما هو من العبث القول: هل النخل أفضل من شجر الصنوبر، وهل إفريقيا خير من أوروبة مثلا، لقد بلغ تعداد سكان كوكبنا الأرضي ثلاثة آلاف مليون نسمة، وثمت عدة آلاف من اللغات المختلفة والناس جميعًا سواء دون النظر إلى الجنس أو الحضارة أو

العرق وكذلك الحال بالنسبة للغات الأرض، فكلها سواء من حيث قيمتها وحقوقها»[7].

اللغة العربية متحركة لا ثابتة:

ومما يراه ويعترف به الضليعون الذين وقفوا على نمو اللغة العربية ومراحل تطورها ومعايشتها لكبريات الأحداث التاريخية أنها من أكثر اللغات التي تعاصرها تحولاً وتحركًا في إضفاء آلاف الدوال منها مداليل جديدة دون أدنى تحوير أو تغيير في بنيتها الصوتية.

وما تَحَوُّلُ اصطلاحاتٍ قديمة فيها إلى اصطلاحات جديدة ثانية وثالثة،... ثم تحوُّلُ هذه الاصطلاحات الأخيرة التي شهدت مجيء الإسلام إلا دليلٌ على التحرك المستمر لا الثبوت، ودليل على التفوق الطاقوي الذي تتميز به من الداخل، وتقنع به أولياءها وخصومها من الخارج، وكان ذلك التحول الطبيعي فيها أمارةً من أمارات بروز تفوقها الحضاري، واستيعابها الثقافي، وبادرةً من بوادر ظهور لغات خاصة لغة القراء، لغة أصحاب الحديث، لغة أصحاب المذاهب في الفقه، لغة النحويين والصرفيين والصوتين والمعجميين، لغة القضاء والقضاة، لغة أصحاب علم الكلام، لغة الفيزيائيين، لغة الرياضيين، لغة الطب والأطباء، لغة الإدارة والدواوين، لغة العملة والتجارة والاقتصاد،... وما كان أصدقَ دي سوسور، وهو يقول : « إن درجة متفوقة من الحضارة تمهد لنمو اللغات الخاصة (اللغة الحقوقية، المصطلحات العلمية،...الخ) [8].

وتحول ألوف من الألفاظ في اللغة العربية من دلالة إلى دلالة لدليل قاطع على اعتباطية الدال في كل حال، وهو غير ملزم بعقد اجتماعي ثابت، وإلا بطل التحول changement من دلالة إلى دلالة ثانية وثالثة،... وبالتالي تُسْتَبْعَدُ الآراء المناهضة لمذهب التواضع والاصطلاح في اللغة.

والتحول في اللغة العربية الجديدة ليس حدثًا جديدًا كل الحداثة فيها،بل هو ظاهرة من ظواهر اللغة العربية تاريخيًا وخاصية من خاصياتها آنيًا، فهي لغة ماثلة أبدًا في محور سكوني وآخر تطوري، وبعبارة أخرى، فإن الوحدات الدلالية في العربية وحدات دلالية مفتوحة لا مغلقة.

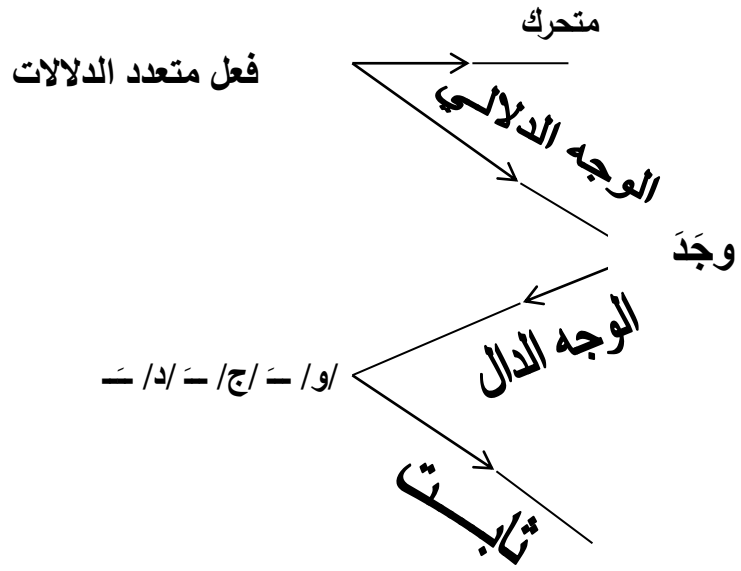

1 . وجدت الشيء وجودًا عثرت عليه شكلاً، وهو فعل متعد.

2. وجدت ضالتي وِجْدانا، وهو فعل متعد

3. وجدت في المالِ وُجْدًا وهو فعل لازم

4 . وجدت عليه موجدة أي غضبت عليه، وهو فعل لازم

5 . وَجِدْتُ به في الحزن وَجْدًا، أي ما عدا هذا الأخير الذي بني بكسر العين، وهو فعل لازم.

ولقد كان أشار سيبويه في مدخل كتابه إلى بعض هذه الحقائق دون تفصيل قبل غيره من المحدثين، غير أن ما يحوَّل ويعدّل يستهدف المدلول لا الدال، وهذا يدل على أن الدال بقدر ما هو ثابت صوتيًا متكيف دلاليًا.

ومما لا يفوتنا أن ننبه إليه حتى لا نفهم خطأ، أن المداليل المختلفة لدال واحد، كما هو الحال بالنسبة للفعل(وجد)، ربما لاتتم بالوحدة الأصلية للدال منعزلاً عما عداه من عناصر لغوية تعقبه أو تحيط به، فضلاً عن اكتفاء الدال، كالفعل هنا، بعنصرين أو ثلاثة، مع اختلاف هذه العناصر، أهي اسمية أم حروف جر؟ ومعنى حرف الباء غير معنى نظيره (على)، ولذلك نحيل على المدرسة الشومسكية لتوضيح هذه الشبكات الدلالية المعقدة لدال واحد:

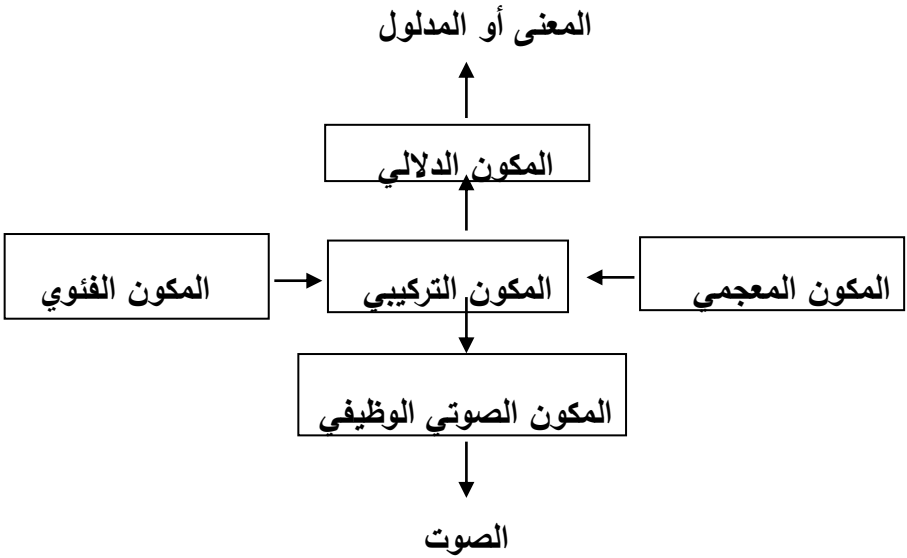

تحول الاصطلاحات مما هو قبلي إلى ما هو بعدي في العربية

أما ما نحن فيه، فإن تحول اصطلاح في العربية إلى اصطلاحات لاحقة لا يعني إلا المكونات الدلالية المتماثلة صوتيًا مع نفس الدال حيث هناك كلمات تحولت من نمطها الاصطلاحي الدلالي العادي في اللغة العربية الماقبلية إلى نمطها المصطلحي الجديد في العربية المابعدية، والعربية الماقبلية هنا تمثل كافة الدوال التي شحنت باصطلاحات قديمة، ثم ما لبثت هذه الدوال أن اعتورتها مداليل جديدة ما بعدية متتالية، بحيث كل ما بعديٍّ ناتجٍ عَنْ ما قبليٍّ فيها بتحول إلى ما بعدي متتال من المداليل الجديدة. ولسنا بحاجة إلى التدليل جزئيًا على ما نقول، فكلمة « مقامات » مثلا، كانت في العربية الماقبلية تدل عادة على المجلس كقول سلامة بن جندل:[9]

يومان: يوم مقاماتٍ وأنديـةٍ ويومُ سيْرٍ إلى الأعداءِ تأْويبِ

أو كقول زهير بن أبي سلمى[10].

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأنديةٌ ينتابُها القول والفعل

وذكر الشارحون لهذه الكلمة بأنها تعني المجالس، وسميت كذلك لأن الرجل كان يقوم في المجلس فيحض على الخير ويصلح ذات البين بين الناس، وتقول العرب : فلان مقامة قومه إذا كان له شأن فيهم، حيث يقوم فيتكلم في الحض على المعروف، كقول عباس بن مرداسٍ السُّلميّ :

فأيّ ما وأَيُّك كان شرًّا فَسيق إلى المقامة لايراها

ومثله قول لبيد:

ومقامات غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

والمعاجم العربية الموثوقة بها مثل الصحاح واللسان تؤكد هذه الدلالة المعجمية القديمة، وإذا تتبعنا تطورها الاصطلاحي اللاحق عند الزهاد والوعاظ وجدناها تتصل بدلالتها الأصلية الدالة على الأمر بالمعروف، لكنها أخذت طابع الزهد والوعظ، وما لبثت أن شحنت دلالة جديدة عند الصوفيين، وهي من جهة أخرى مصطلح جنس أدبي معروف فيما يعرف بمقامات بديع الزمان الهمذاني، ومقامات الحريري وغيرهما.

وكثيرا ما يقال : إن لكل عصر لغته أي اصطلاحاته، واللغة لا تلجأ إلى وسائل أخرى من صلبها مثل النحت والقياس والاشتقاق،... بديلاً عن الاجتزاء، بتحول دوالها عينها من الداخل تتابعًا إلا إذا عدمت هذا التحول أي التحرك المستمر على مستوى المداليل الجديدة التي تشحن بها تلك الدوال نفسها، وليس ضرورة، بل هذا مستبعد، انه كلما عبر دال ما قبلي أو سابق عن مدلول ما بعدي أو لاحق عن معنى جديد زال ذلك المدلول الماقبلي، لأن

اللغة منظومة تسع كل معانيها، وإذا ما تبدل فيها استعمال باستعمال، فإن الأمر من قبل ومن بعد يرجع إلى المستعملين في تلك اللغة التي لا شأن لها كمنظومة لسانية بما قدم أو حدث فيها.

التحولات الدلالية في ضوء العربية الإسلامية

والتحول في لغة حتى وإن دل على أهم مظهر من خصائصها، فإنه لا يدل على فناء معاني الألفاظ السابقة كلية بدعوى أنه في كل عصر « تولد أشياء وتموت أشياء، ولا بد لهذه الأشياء التي تولد من ألفاظ تعبر عنها »[11]، لأن الألفاظ الماقبلية لا تموت إطلاقًا، بل لا معنى لموت كلمات من اللغة، فالإسلام الذي حول مداليل لألفاظ ما قبلية لم يمحق دوال هذه المداليل محقًا قليلاً ولا كثيرًا، بل بالعكس سجل ووثق تلك الدوال نفسها وشحنها بمداليل متنوعة دون أن يلغي مداليلها السابقة إلغاء تامًا، وكل ما في الأمر أنها تحولت من خطاب بشري لتقترن بخطاب إلهي، وليس الآخِرُ عفّى الأول حسب تعبير ابن فارس[12].

والألفاظ ذاتها ليست هي التي نُقِلَتْ من مواضع إلى مواضع أخر، بل شحنت شحنًا دلاليًا جديدًا بشرائع شرعت أو شرائط شرطت، فالقرآن لسان عربي، ولا يمكن للسان أن يكون بمداليل دون دوال أو بدوال دون مداليل، ولذا فإن الدلالات اللغوية الإسلامية الطارئة ليست جديدة كل الجدة، وإلا لما فهم العرب تلك اللغة القرآنية، وكانوا بالتالي حجة عليها، وإذا كان لا بد من جدة وتطور في اللغة العربية الإسلامية، فالأمر لا يعدو أن يكون تطورًا دلاليًا نسبيًا وليس مطلقًا، فكلمات مثل المؤمن، والمسلم، والكافر، والمنافق، والمؤمن، والإسلام، والصلاة، والصيام، والجهاد، والزكاة، والحج، والعمرة،... كلها اصطلاحات في اللغة الجاهلية معروفة بدلالاتها اللغوية العادية بين العرب،

ولكننا مع ابن فارس في قوله :« فالوجه في هذا، إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: في الصلاة اسمان : لغوي وشرعي،... وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر، كل ذلك له اسمان: لغوي وصناعي »[13]. لأن اللغة أي لغة تحصيلات لآلاف السنين من التقلبات الاجتماعية والأحداث التاريخية والتطورات الثقافية والتكنولوجية ليست اللغات كتبًا سماوية، بل هي نشاطات وابتكارات إنسانية متتالية، وليس هذا كل شيء« إذ تخضع اللغات

لأطوار من التغير منها تغيرات تطرأ على العالم الذي يحيط بمتكلمي تلك اللغة... يبقى العالم كما هو من الناحية الطبيعية المادية(الفيزيائية)، ولكنه يصبح عالمًا آخر مغايرًا في الوعي البشري بل إن اللغة الواحدة تحلل العالم على نحو مختلف ومتباين في المراحل المختلفة من تطورها »[14].

إن اللغة العربية في اصطلاحاتها الدلالية تكاد تكون لغة واحدة حتى وإن استطاعت أن تفسر لنا العالم وتعكسه بطرائق متباينة، وتحولها من دلالات داخلية إلى دلالات خارجية أو من مداليل أفقية إلى مداليل عمودية لا ينم عن انتقالها من لغة ما قبلية إلى لغة ما بعدية متباينتين إلى درجة أننا أمام لغة جديدة بدعوى أننا أمام عصر جديد.

هل لغتنا أشبه بعقربي الساعة؟

إننا لا ننكر التغير اللغوي إنكارًا مطلقًا، ولكن يجب أن نفرق بين التحول والتغير، فحين تحدث تغيرات اجتماعية وتخترع علوم، وتتبدل بنيات المجتمع تبدلاً نسبيًا، فإن اللغة تصحب كل هذه التغيرات بتحولات عمودية داخلية، ويرصد علماء السلالات اللغوية هذا التغير من خلال تشبيههم إياه بعقربي الساعة، فعقرب الدقائق يتحرك وفق التغيرات التي تطرأ على الثقافة والحياة اليومية للمجتمع، أما ثانيهما فإنه يشير في تحركه البطيء غاية البطء إلى مفردات اللغة الأساسية، بيد أن ما يطرأ من هزات واكتشافات علمية ونحو ذلك لا يكاد يؤثر

أبدًا على رصيد اللغة في مفرداتها الأساسية [15].

وحتى فكرة الساعة اللغوية التي لم تظهر إلا في العقد الرابع من القرن العشرين أثارت، ولا تزال تثير أضربًا شتى من التساؤلات غير المريحة، والأمر في كل الحالات لا يخص إلا عينة من المفردات الأساسية، لكن ما هي الكلمات الأساسية من غير الكلمات الأساسية ؟ فما لا تستعمله فئة اجتماعية أو مهنية أو صناعية على مستوى مجتمع لغوي واحد قد تستعمله فئات أخرى مختلفة معها في وظائفها ومهنها واهتماماتها، وأكثر من هذا أن لا أحد يضمن تحول كمية كبيرة أو صغيرة مما يسمى بالمفردات الأساسية إلى اصطلاحات مجازية أو رمزية أو سيميوطيقية باطراد؟ وحتى لو ذهبنا جدلاً مع فكرة الساعة اللغوية، فإن الدراسات اللغوية التطبيقية في الميدان نفسه أثبتت أن معامل البقاء أو معدل تغير المفردات الأساسية في اللغات المختلفة التي طبقت عليها هذه الإحصاءات يتراوح ما بين 76و85 في المائة كل ألف عام [16]، وهذه النتيجة الإحصائية بالرغم من الوسائل العلمية المتطورة التي استخدمت فيها بما في ذلك الكربون المشع لقياس الزمن، فإنها تظل أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة، اللهم إلا إذا كان ما ينطبق على تلك اللغات المسبورة لا ينطبق على اللغة العربية.

هل تزول اللغات ؟

على أي حال إن القول بزوال لغة بكاملها أولى من القول بموت كلمات فيها، فاللاتينية التي عمرت أكثر من ألف عام اختفت كلغة

سياسية رسمية لإمبراطورية كانت الشمس لا تكاد تغيب عنها، ولكن مفرداتها توزعت فيما تولد عنها من لغات أوروبية حديثة، وأولاً وأخيرًا، فإن ذبول لغة من الساحة الأدبية أو التعبير بها يَعود لأحداث خارجية لا صلة لها باللغة في ذاتها من قريب ولا من بعيد، ولا أدل على ذلك من كتابة نيوتن كتبه باللغة اللاتينية، ودليل آخر على استبعاد موت اللغة أن العبرية التي لم تعد لغة حديث منذ آلاف السنين« فضلا عن أنها لغة شديدة التعقيد»[17]، صارت اللغة الحديثة الرسمية في إسرائيل، على الرغم مما تتميز به اليوم من أخلاط هجينة من الكلمات الدخيلة فيها من لغات الشعوب التي كانت الجاليات اليهودية تتكلمها هنا وهناك، ولكن هذا أفضل من تفكير سَمِجٍ في مشروع لغة وضعية، أو اقتراض لغة أجنبية تمنح سيادة علمية على حساب السيادة المعنوية لأي شعب يحترم نفسه وتاريخه وأسلافه، ويفكر تفكيرًا سليمًا في مستقبله.

لكن مع ذلك، فإن اللغة العبرية التي لا تخلو من مميزات لسانية إيجابية أسوة بأخواتها الساميات، قد اعتورها التحول والغزو من الخارج أكثر مما اعتمدت ألفاظها التحول، فهي لغة أفقية بنفسها لكنها عمودية بغيرها، غير ان الجاليات التي كانت تتكلم لغة أكثر تطورًا بحكم الموطن المتقدم لسكناها هي التي تهيمن ألفاظها الحضارية والتكنولوجية على ألفاظ الجاليات التي عادت إلى إسرائيل حديثًا من بلدان متخلفة.

لكل لغة عصر :

وبدل أن نقول: إن لكل عصر لغة خاصة، يجمل بنا القول : إن لكل لغة عصرها الخاص، لأن العصر هو الذي يتحدد باللغة وليس العكس، فحين نقول مثلاً : اللغة العربية في العصر الجاهلي،فإن الأمر لا يعدو اكثر من ربط هذا العصر ربطًا أمنيًا وتاريخيًا باللغة التي كانت سائدة في تلك الفترة، وتحديد تلك اللغة ولهجاتها واصطلاحاتها المختلفة لا يعني في واقع الأمر إلا تحديدًا لذلك العصر بعينه، لأن العصر كلمة وهمية لاتدرك إلا بغيرها، ومن جهة أخرى أن تحول اصطلاحات في لغة لا يفقد، كما أشرنا، ميزتها في العصر الخوالي، لأن اللغة ساكنة أفقيًا، متحركة عموديًا، وبين حدود هذه الأفقية والعمودية تتموقع لغة كل عصر، وينتهي عصر كل لغة.

هل زالت اصطلاحات من العربية القديمة ؟

وكتب فقه اللغة القديمة توجهنا توجيها مريبًا بان أسماء كاملة في اللغة العربية لم تتحول مداليلها بل زالت من لغة القوم بزوال معانيها وينشدون بيتا لأحد الشعراء الجاهليين[18].

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

ليستدلوا به على توجيههم، واستغله ابن فارس دون أن يذكر البيت بعينه، لكنه صرح بأن المرباع والنشيطة والفضول من الأسماء التي زالت من اللغة بزوال معانيها [19].

لكنه اعرض عن ذكر الصفي لأن رسول الله ﷺ كان قد اصطفى في بعض غزواته وخص بذلك، أي ان الصفي مات لغويًا بموت الرسول عليه السلام.

والواقع ان الصفي، مثلما ذكر ابن السكيت نقلاً عن الأصمعي، ما يصطفيه الرئيس لنفسه من المغنم قبل القسمة، وكانت هذه العادة عند العرب قبل مجيء الإسلام ، ولما كانت غزوة بدر الكبرى اصطفى الرسول لنفسه عملاً بعادة القوم سَيْفَ مُنبِّه بن الحجاج وهو الفقار، وصفية بنت حُيَيٍّ [20]. وأكد أبو عبيدة : « والصفي أن يصطفي . أي الرئيس . لنفسه بعد الربع شيئًا كالناقة، والفرس، والسيف، والجارية، والصفي في الإسلام على تلك الحال»[21].

وأما المرباع فهو ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية ثم ما لبث أن تحول ليصير خمسًا في الإسلام[22]، وقال قطرب: المرباع الربع، والمعشار العشر، ولم يسمع في غيرهما[23]. والفضول بقايا الغنيمة، والنشيطة ما يغنمه القوم في طريقهم التي يمرون بها،... ومثل هذا ما زعمه ابن فارس من زوال المكس والإتاوة والحلوان (ما يعطى لإنسان من شيء مقابل عمل ينهض به غير الأجرة).

إن الحروب في كل عصر، والنهب والسلب في كل زمن، من ذا الذي استعمر وطنه من استعمار همجي مقيت، ولا يتذكر ما كان جنود

المستعمر وحاشيته من الدخلاء والعملاء ينهبونه في وضح النهار؟. لا يمكن للغة من اللغات أن تكون مثالية وتعرى من كلمة تشينها في الوقت الذي يقابلها مجموعات بشرية نهمة جشعة، القوي منها ينهب حق الضعيف، فهذه المداليل التي زعم أنها زالت من اللغة العربية لا تبرح أفعالها مجسدة بصورة أو بأخرى، وبالتالي لا نطمح في لغة ملائكية لتعبر عن أفعال بشرية.

فابن فارس يدعي أن تراكيب أيضا قد زالت بزوال معانيها لا نريد التعرض لها هنا لأنها لا تدخل في مجال عرضنا هذا، ولنجتزئ بتركيب: انعم صباحًا، هذا التركيب الذي وظفه الشعراء في صور طللية غنائية، يستحيل على امرئ أن يلوكه مرة، ولا يكرره متغنيًا مرات ولو بينه وبين نفسه.

ألا أنْعمْ صباحًا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي؟

وهل يعمن إلا سعيد مخلـد قليل الهم ما يبيت بأوجــال

وهل يعمن من كان أحدث عهده ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحـوال

والقول بزوال تركيب: انعم صباحًا يؤدي إلى القول بزوال : عِمْ صباحًا، ما دام أن نِعمَ يَنْعَم في معنى وعَمَ يَعِمُ، وكل تبنٍّ لمثل هذه المزاعم دون تبصر وتدبر يقودنا حتمًا إلى قبر ثروات لغوية قديمة يستحيل على الأجيال الناطقة بهذه اللغة استدراكها وتبديلها باصطلاحات لاحقة يسهل التواضع عليها بحيل اصطناعية أو إعلانات بيانية.

الاصطلاحات تتحول دلاليًا متنوعًا.

ما أكثر الكلمات التي نحسب أنها زالت وهي مستعملة حتى في حياتنا اليومية، فهي قد تحول من شيء إلى شيء آخر لكنها غالبًا ما تظل متقاطعة دلاليًا مع الدلالة الأصلية لها، وهذا في مجال التحولات الدلالية غير المجازية

والرمزية والأعراضية، لأن هذه التحولات الأخيرة لا يمكن مراقبتها والسيطرة عليها في أية لغة، وقد تكون في اللغات الطبيعية بشكل أكثر لفتاً للانتباه، ولكن الناس لا يبالون بها.

من هذه المواد التي لم تعد مستعملة ظنًا من غير المتعمقين في بحر اللغة العربية بأنها عامية مادة فاش يَفيش فَيْشًا وما اشتق منها، وهي تدل على المفاخرة، وكثيرًا ما نسمع: « راه يْفيَّشْ،، فيَّاشْ، يتفَيَّشْ،...» في العامية الجزائرية، ويبدو ان هذه الكلمة لم تعرف تحولاً أي تحول في العامية،... ومنها كلمة « العشة » التي تدل في أصلها على النخلة إذا قل سَعَفُها ودَقَّ أسفلها، وشجرة عشة إذا كانت قضبانها دقيقة ومَنْبِتُها لئيمًا، والعشة من النساء القليلة اللحم، والرجل عش أيضًا،... والعشة عندنا معروفة، وهي البيت الهش المتواضع الحقير الدال على بؤس صاحبه ومدى قيمته بين قومه في قرية أو مدينة، وغالبا ما تسكن العشة العجائز، وحتى عش الطائر سمي عشًا لمَّا كان من دِقاق العيدان وفي أفنان الشجر نظرًا لهشاشته

وتعرضه للاندثار او السطو عليه حتى من الهوام والحشرات والعاصفة والإنسان، بينما عشه في جبل أو جدار يسمى وَكْرًا أوْ وَكْنًا لمنعته، ومثل ذلك إذا كان في الأرض يدعى أُفحُوصًا أو أدحِيَ ًا،...

والذي يتصفح فهرس الكلمات التي لم تذكر في المعاجم في نهاية الأصمعيات المحققة تحقيقًا علميًا جيدًا، ليلاحظ أنها أهملت معنى « التِّكة » بالمعنى المعروف في عاميتنا وجمعها تكك، وهي بكسر التاء، ونحن نلفظها بفتحها على عادتنا في العامية الجزائرية غالبًا، وهي التي تُدْخل في السروال لشده وحزمه، مما جعل البعض من اللغويين القدماء(ابن الأنباري) يعدها فيما عرب من كلمات، وصاحب الصحاح ذكرها ولم يشر إلى معناها، وما ذكر لها من بعض المشتقات لاصلة له بمعنى وظيفة التكة، مما جعل ابن الأنباري يذهب إلى كونها معربة.

ولنذكر كلمة « البيئة » التي تعني اليوم عندنا المحيط أو الوسط Environnement السكاني، كيف تحولت من دلالتها القديمة التي لم تُعَفَّ كليًا مع المفهوم الحالي لمعنى البيئة، هذه الكلمة استعملها شاعر جاهلي قديم استعمالاً يدل على الحال السيئة : [24].

أودى بنيَّ، فما بِرَحلي مِنْهُمُ إلا غُلامَا بيئَة ضَنَيانِ

وذكر أبو عمرو بن العلاء انه يقال :« هو ببيئته سَوْءَ، وبكينَةِ سَوءٍ أي بحال سَوْءٍ »[25] وهذا قريب جدًا مما تعنيه البيئة، ولا سيما تلوث الجو فيها، والبناء الفوضوي وتأثير محيطها.

بل، لماذا نذهب بعيدًا ؟ إن المعاجم تقول لنا: إن كلمة « موقف» تعني مكان الوقوف، وكثيرًا ما وقف الشعراء على الأطلال فبكوها ووصفوها أوصافًا شتى، ويظن النبهاء من الأدباء العرب أن وقوف الشاعر على الطلل مستمد من وقفت وقوفًا أي ضد الجلوس أو المرور على الطلل دون مراعاة واهتمام وشوق لذكر من كان يقطن دمنه وخرابه. والواقع أنه مستوحى من موقف المرأة أي ما لا بد لها أن تظهره من جسدها، ويُشارُ به إلى يديها وعينيها، وقيل سمي موقف المرأة موقفًا لأن موقفها يبدو منها حين تقف[26] فاستعار الشعراء ذلك الوقوف، وذلك البكاء من هذا المعنى البعيد.

والكل يعلم كيف أصبحت كلمة « موقف» تدل على ما تدل عليه اليوم بدلالات لا قبل لها بالدلالات القديمة بشكل مباشر، وحسبنا ان نشير إلى بعض الاصطلاحات الشائعة:« وزارة الأوقاف »، وقف فلان محله او ثروته أي حبسها في سبيل الله، والموقف الشخصي أو السياسي أو الإيديولوجي لفلان، وموقف السيارات،... الخ.

وإلى جانب ما ذكر فهناك مائات، بل آلاف الكلمات التي تحولت تحولاً معنويًا من الداخل، منها :

1 . **التوقيع:** معناها الأصلي كان يدل على التأثير، وتحولت إلى وضع اسم الكاتب على ما يكتبه، وكانت من الكلمات القديمة التي تحولت سريعا في العهد اللغوي الإسلامي، ونحن الآن نستعمل الإمضاء ونعني به عادة التوقيع.

2 . الدولة : معناها الأصلي انقلاب الزمن والحال، وأصلها اللغوي قديمًا يشير إلى ارتباطها الدلالي بالحرب،، وعرفها الجوهري : « الدولة في الحرب: ان تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال: كانت لنا عليهم الدولة »[27]. ولذلك ذكر أبو عمرو ان الدولة بضم الدال تكون في المال، وبفتحها تكون في الحرب، وهي لا تبتعد عن المعنى الدلالي دالت الأيام تدول دولاً إذا دارت، لكن هذه الدلالة وإن كانت لا تزال مستعملة في اللغة الحديثة، فإنها لا تدل على الدولة بمفهومها الحديث الدال على الملك أو الحكم وما يصحب ذلك من نظام سياسي معين.

3 . فكهه : كانت هذه الكلمة قديمًا تدل على تقديم الفاكهة، وتفكّه إذا أكل الفاكهة او تعجب، لكنها تستعمل الآن للتسلية وإزالة الهموم.

4 . النظم : معناها الأصلي من نظم الخرز في السلك، او نظم الأمر حتى ينتظم أي يستقيم في نظام واحد، وجاءنا نظم من الجراد أي كثير على المجاز القديم، وربما دلَّ دلالة بعيدة على نظم الجوزاء، ثم صار يدل على نظم الشعر وتنظيمه، حتى أصبح يطلق عليه مقابل مصطلح النثر فيه فيقال النظم، ويراد به الشعر، والنظم عند عبد القاهر تأليف الكلم،... وربما أطلقه بعض اللغويين المحدثين على ما يقابل البنيوية او حتى السانتكس،... ومثل هذا آلاف الكلمات.

التحول الاصطلاحي في العربية عامل تطور فيها

إن التحول الذاتي أو التولد الداخلي على مستوى نفس البنية الصوتية يمكّن العربية من الدلالة على أغراض ومعانٍ عصرية جديدة دون اللجوء ضرورة في كل مرة إلى تعريب او ترجمة، وهذه الكلمات عادة ما تتحول معنويًا من الداخل بتحول نشاط المجتمع اللغوي من وظائف قديمة إلى وظائف متسلسلة جديدة.

وبعودتنا مرة أخري إلى أحد نصوص الجاحظ نتأكد مما نحن فيه، حيث حدثت تحولات داخلية من ذات اللغة العربية لآلاف المصطلحات وفي كل المجالات، حتى كأننا أمام لغة عربية جديدة كل الجدة لاتشترك مع العربية الجاهلية إلا في أنظمة قواعدها.

ما هذه الأوتاد والأسباب التي ولدها الخليل مصطلحات للعروض في الشعر العربي؟ وما هذا الخرم والزحاف؟ وكانت العرب قد أشارت إلى بعض هذه المصطلحات العروضية مثل السناد والإقواء والإكفاء، لكن ما هذا الإيطاء الذي استحدثه الخليل خاصة وأن الجاحظ اعترف بأنه لم يسمع بالإيطاء؟. ولْنَقِسْ على هذا ما اصطلح عليه النحويون، والرياضيون والمتكلمون، والطبيعيون، والديوانيون، والفلكيون، والموسيقيون، وأصحاب الصناعات والمهن المختلفة.

إن التحول في اصطلاحات عربية ما قبلية تحولاً دلاليًا داخليًا من كيفية سابقة إلى اصطلاحات عربية ما بعدية متتالية للتعبير بنفس الدال عن مداليل جديدة ركن من أركان تطور اللغة العربية، وعامل أصيل من عوامل بعثها واستنطاقها واستيحائها، ورحم الله شاعر النيل:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

إن عامل التحول في اللغة العربية ينبغي ألا يستهان به، وهو لا يقل شأنا عن العوامل الأخرى فيها مثل الاشتقاق، والقياس، والنحت، والتعريب، لأنه كثيرًا ما تكون لدينا اصطلاحات دلالية جاهزة في اللغة العربية القديمة تمكننا من التعبير مباشرة والاستدلال بها على ما يخترع من اختراعات في كل الحقول العلمية والتكنولوجية بمقارنة وظائف هذه المخترعات الجديدة وعملها بمداليل الاصطلاحات العربية التي سبق للعرب أن استعملوها استعمالاً قريبًا منها.

إن ما يسمى بمشاكل اللغة العربية هنا وهناك وفي هذا الحقل أو ذاك مشاكل مفتراة ومصطنعة، وهي وإن وجدت فعلاً،، فليست من العربية في شيء، ونحن لا ننفي هذا النفي عن العربية حبًا لها أو تعاطفًا معها، بل عن اقتناع علمي ظل ينمو ويرسخ فينا قراءة بعد قراءة وبحثًا تلو بحث.

نجزم بهذا، ونحن لم نتكلم بعد عن المصطلح، لأن مشكل العربية ليس في انعدام المصطلح، ولا في قصورها عن مواكبة علوم عصورها ولا في قدرتها على تحدي الألفية الثالثة، بل في إهمالنا للاصطلاحات الذاتية التي تتحول من الداخل في اللغة العربية إهمالاً فيه التقاعس تارة، والتكاسل مرة، والجهل بأصلها ورصدها واقتفاء آثارها الدلالية في تحركها وتحولها عبر الأجيال التي لا تثبت فيها على استعمال واحد.

أمن معجم دلالي تاريخي للعربية ؟

والغريب أنه على كثرة ما نعرف وما لا نعرف من مجامع وهيئات عربية في المشرق وفي المغرب وفي آسيا، فإن واحدًا منها لم يجرؤ، فيما اعلم، على تتبع وبحث هذه الاصطلاحات بحثًا دلاليًا متسلسلاً في مختلف استعمالاتها من العصر الجاهلي إلى نهاية القرن العشرين، وما هي المنعرجات التي عرفتها هذه الاصطلاحات؟ ومتى ظهرت ؟ وهل انتهت استعمالاً أم مازالت؟ ومن الذي استعملها بهذه الكيفية مقابل استعمالها بكيفية أو كيفيات أخرى لدى مستعمل أو مستعملين آخرين ؟ وأين؟ وما المناسبة ؟ وإلى أي مدى انحرف مدلولها الفرعي مقارنة بمدلولها الأصلي أو النووي؟...

لو تدبرنا ما في الأعمال الفقلغية للفقلغيين العرب القدماء من تذليلات وتمهيدات آخذين إياها بعين الجد والاهتمام لما كان بين الباحثين العرب المحدثين والأمة العربية اليوم قاطبة تواكلات من هذا الباحث او البلد على باحث او بلد آخر، إذ ليس مثل هذا المعجم المتعدد المجالات معجزة كلية، بل هو ممكن الإنجاز، لو تُوَزَّعُ الجهود بمعدل حرف واحد لكل بلد عربي او هيئة علمية تابعة للدولة.

فهذا ابن فارس . مثلا . حيت يتحدث عن باب أجناس الكلام في الاتفاق والاختلاف يشير إلى أن ذلك يتم بوجوه[28].

1 . اختلاف اللفظ والمعنى، وهو الأكثر والأشهر.

2 . اختلاف اللفظ واتفاق المعنى: ليث وأسد.

3 . اتفاق اللفظ واختلاف المعنى:عين الماء،عين المال،قضى وحتم

4 . اتفاق اللفظ وتضاد المعنى : عسعس الليل إذا أقبل او أدبر.

5 . تقارب اللفظين والمعنيين: الحزم والحزْن. الخضم والقضم.

6 . اختلاف اللفظين وتقارب المعنيين: مدحه إذا كان حيًا، وأبَّنه إذا كان ميتًا.

7 . تقارب اللفظين واختلاف المعنيين: حَرَجَ إذا وقع في الحرج، وتحرَّج إذا تباعد من الحرج، أثم وتأثم، وَفَزِع إذا اتاه الفزع، وفُزِّع عن قلبه إذا أُنْحي عنه الفَزَعُ.

وهذا ما يتصل باللغة العربية على سبيل الحقيقة لا المجاز، لأن باب المجاز باب أكثر تحركًا في التحول ومن الصعب، بل من المستحيل التفكير في السيطرة عليه باعتبار إحدى عادات العرب في خطاباتها ان يخالف ظاهر الخطاب معناه التحتي، ولكن هذا لا يمنع إطلاقًا من رصده وإحصائه في فترات متباينة، لأن التطور البلاغي

بالنسبة للُغةٍ ما تطور دائب وعفوي، ولكن هذا التطور أو التحول لا يخرج في كل الحالات عما هو أصل، بل الاعتراض أو عدم الاعتراض على كل ما هو غير حقيقي مرَدُّه في التحكيم إلى ما لا يُعْتَرَضُ عليه، واعني به الكلام الحقيقي.

إن بعض الوجوه التي ذكرها ابن فارس لا تقل شأنًا عن العوامل او الوسائل الشائعة التي يمكن استثمارها والاعتماد عليه أيما اعتماد في النهوض بكل الجوانب التي تنقص العربية لأن تكون لغة العصر بكل معطياته، علمًا بان ما يحتاجه التعبير عن الاختراعات العلمية والتكنولوجية لا يتطلب ثروة لغوية معقدة، بل الأمر متوقف على بعض مائات أو بضعة ألوف من المصطلحات البسيطة لو توفرت لها سلفًا الاصطلاحات في اللغة المعبر بها.

الإحالات

1 . مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) ج:2/ مجلد:38 عام1963، ص:187..189

2 . راجع تاريخ الحضارة الإسلامية، ص:38.36 قلاديميرويج بارتولد ترجمة حمزة طاهر، ط:1966/4 دار المعارف، مصر.

3 . الحضارة العربية في إسبانيا، ص:116.115 ليثي بروفنسال، ترجمة، د. الطاهر أحمد مكي، ط:1985/2 دار المعارف مصر.

4 . انظر المرجع السابق، ص:.121

5 . راجع الأصوات والإشارات، ص:78 كنراتوف ترجمة : شوقي جلال1972 الهيئة المصرية العامة للكتاب.

6 . نفسه، ص:78..79

7 . نفسه، ص:.79

8 . محاضرات في الألسنية العامة، ص:35 فرديناند دي سوسور، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، ط:1984 دار نعمان للثقافة. بيروت.

9 . المفضليات، ص:120 تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون،ط:4 دار المعارف مصر.

10 . ديوان زهير، ص:113 الثقافة والإرشاد القومي، ط:1964، القاهرة

11 . مجلة المجمع العلمي العربي(دمشق)ج:4/مجلد:41 عام 1966ص:.579

12 . فقه اللغة لابن فارس، ص:781 تحقيق مصطفى الشويمي مؤسسة بدران1963 بيروت.

13 . نفسه، ص:.81

14 . الأصوات والإشارات، ص:.66

15 . انظر المرجع السابق، ص:.104

16 . راجع المرجع السابق، ص:105..107

17 . نفسه، ص:.152

18 . المصباح المنير 344/1، الفيومي، المكتبة العلمية بيروت.

19 . فقه اللغة لابن فارس، ص:.90

20 . انظر المصباح المنير 1/.344

21. السابق، ص:.344

22 . نفسه، ص:.344

23 . الصحاح، ج1213/3 الجوهري، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، ط:1972 دار العلم للملايين بيروت

24 . النوادر في اللغة، ص:170 أبو زيد الأنصاري، المطبعة الكاثوليكية بيروت .1894

25 . السابق، ص:.170

26 . راجع المصدر السابق، ص:.170

27 . الصحاح 4/.1700

28 . انظر فقه اللغة لابن فارس، ص:202.210.

وقارن بفقه اللغة للثعالبي، ص:245، لأبي منصور الثعالبي، دار مكتبة الحياة . بيروت.

وانظر نفس الباب في الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ق 2/ 108.106 البطليوسي، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا والدكتور حامد عبد المجيد، ط:1981 الهيئة المصرية العامة للكتاب.